العلاقات بين الأجيال.. فجوة أم اختلاف صحي؟

ليس جديدا أن يختلف الأبناء عن آبائهم، ولا أن ينظر كل جيل إلى الحياة من نافذة مختلفة. الجديد فقط أن المسافة بين هذه النوافذ اتسعت بصورة لم نعتدها من قبل. فالعالم الذي نشأ فيه الآباء ليس هو العالم الذي يكبر فيه الأبناء، وما كان يحتاج إلى سنوات حتى يتغير، أصبح اليوم يتغير أمام أعيننا خلال أشهر، وربما أيام.

لهذا يبدو اختلاف الأجيال أكثر وضوحا في زماننا هذا. جيل كانت المعرفة بالنسبة إليه كتابا أو معلما أو تجربة، وجيل يحمل آلاف الكتب والمعلومات في هاتف صغير. جيل يرى في الاستقرار قيمة أساسية، وجيل يبحث أكثر عن الحرية والتجربة واكتشاف الذات.

ومن المغالطات الشائعة التي تتكرر في هذا السياق افتراض أن الجيل الجديد بلا قيم أو أنه تخلى عن الثوابت التي رُبي عليها من سبقه، وهذا افتراض يحتاج إلى تدقيق أكبر مما يبدو للوهلة الأولى. فالأصح أن القيم الجوهرية نفسها ما زالت قائمة وحاضرة، لكن أولوياتها وأشكال التعبير عنها هي التي تبدلت مع الزمن.

فالاحترام، على سبيل المثال، لم يختفي من قاموس الجيل الجديد، لكنه لم يعد يعني بالضرورة الصمت المطلق أمام الكبار كما كان سائدا سابقا، بل قد يعني اليوم حوارا مفتوحا وسؤالا جريئا يطرح باحترام.

وأمام كل هذه المعطيات، فإن الأمر يجمع بين الفجوة والاختلاف الصحي في آن واحد. فهناك بلا شك فجوة حقيقية في التواصل بين الطرفين، تظهر بوضوح حين يعجز كل طرف عن الإصغاء الحقيقي للآخر دون إصدار حكم فوري أو تعميم متسرع. لكن هناك في المقابل فرصة نادرة وثمينة للتكامل بين الطرفين، حين تلتقي خبرة الكبار وحكمتهم المتراكمة عبر سنوات طويلة من جهة، مع جرأة الشباب وانفتاحهم على المستجدات وسرعة تكيّفهم مع المتغيرات من جهة أخرى. وحين تلتقي هاتان الطاقتان المتكاملتان دون وصاية متسلطة من طرف، ودون استهانة واستخفاف من الطرف الآخر، تنتج عن هذا اللقاء تركيبة نادرة تجمع بين الحكمة والحيوية معا، وهي تركيبة تحتاجها الأسر والمجتمعات على حد سواء.

فالاختلاف بين الأجيال في حد ذاته ليس مشكلة. بل قد يكون ضرورة صحية لأي مجتمع يريد أن يتقدم. فلو ظل الأبناء نسخة مطابقة لآبائهم، لما تغيرت المجتمعات، ولما ظهرت أفكار جديدة، ولا طرق مختلفة في التعليم والعمل والتواصل والحياة. فبين الطرفين توجد مساحة كان يمكن أن نسميها الحوار.

الآباء لا يحتاجون إلى أن يصبحوا أبناءهم، كما أن الأبناء لا يحتاجون إلى أن يعيشوا حياة آبائهم. المطلوب أن يفهم كل طرف أن الآخر جاء من زمن مختلف، وأن اختلاف التجربة لا يعني فسادها. يمكن للأب أن يتعلم من ابنه شيئًا لم يعرفه، ويمكن للابن أن يكتشف في تجربة أبيه ما لا تمنحه له الكتب.

والأهم أن نتوقف عن استخدام العمر بوصفه حجة نهائية. فليس كل كبير حكيما لمجرد أنه كبير، وليس كل صغير مخطئا لمجرد أنه صغير. فالحكمة تُكتسب، والمعرفة تتجدد، ربما نحتاج اليوم إلى أن نعيد تعريف علاقتنا بالأجيال. لا نريد أبناء يرفضون الماضي كله، ولا آباء يخافون من المستقبل كله. نريد علاقة يأخذ فيها كل جيل من الآخر ما يحتاجه، ويترك له حقه في أن يكون مختلفا.

نحتاج أن نختلف دون أن نفقد بعضنا لأننا إذا استطعنا ذلك، كان اختلاف الأجيال علامة صحة وحيوية.

أما إذا توقفنا عن الاستماع، وتحول كل اختلاف إلى اتهام، وكل نصيحة إلى وصاية، وكل فكرة جديدة إلى تمرد، فلن تعود المسألة اختلافا بين أجيال، بل ستصبح فجوة تتسع كل يوم. هذه الفجوة تبدأ حين يكف كل جيل عن محاولة فهم الآخر.

لنكن آباء لا يخافون من أسئلة أبنائهم، ولنكن أبناء لا يخجلون من الاستفادة من تجارب آبائهم. فالفجوة موجودة، والاختلاف موجود، والتغير لا يمكن إيقافه.

لكن هل سنترك هذه الفجوة تكبر حتى تفصل أبناءنا عنا، أم نمد لها جسرا من الحوار قبل أن يصبح الوصول إلى بعضنا أصعب؟